الولاية ومراتبها

منال عبد الحميد محمد عبد الحميد

المقدمة :

تعتبر مسألة الولاية من أهم المسائل فى التصوف فهى تمثل بنيانه وقوامه الذى يقوم عليه ؛ والتى تعد أعلى مدارج الطريق إليه وعنها وبها ينال الإنسان المعرفة عن الله .

ومما يزيد من أهمية الولاية فى التصوف ارتباطها بالعديد من المسائل العقدية كالعصمة والشفاعة والكرامات للأولياء ، وهى من المسائل البالغة الأهمية بالنسبة للأنبياء عليهم جميعا الصلاة والسلام.

وعلي الرغم من أهميتة الولاية عند المتصوفة إلا إنها ذكرت في مواضع كثيرة . عند غير الصوفية . وقد وجهت لها العديد من الانتقاضات المختلفة التي تجعلها محورا للبحث والاكتشاف وتوضيح المبهم منها وما يرتبط بها من مصطلحات صوفية ذوقية ؛ ولمدي أهميتها التي ذكرناها وجب علينا دراستها من منبعها وعند أول أئمتهم وهو " الجنيد " ومعرفة فكرتهم عن الولاية وفهم أسسها ولوازمها ومقارنة أرائه بأراء أحد المتأخرين عليه حتي نري مدي تطور هذا العلم وإلي أي مدي وصل إليه .

- أما منهجي في الدراسة فهو المنهج التحليلي وقد استخدمته في عرضي لأقوال كل من الجنيد والقشيري وقد ظهر تطبيق هذا المنهج في جميع فصول الرسالة .

علي أنني لم أحصر نفسي في إطار المنهج التحليلي فقط بل اعتمدت ايضا علي المنهج المقارن وذلك في مواضع كثيرة من البحث بحكم موضوع الدراسة إذ يضم شخصيتين هما الجنيد والقشيري فاستلزم ذلك الوقوف علي نقاط التشابه والإختلاف ، كما اعتمدت أيضا في قليل من مواضع البحث علي المنهج التاريخي وذلك في إيضاح بعض المفاهيم المتعلقة بموضوع الدراسة

وسوف اتناول في هذا الفصل النقاط الأتية :

1- الولاية لغة .

2- الولاية في القرآن والسنة .

3–الولاية عند الصوفية .

4–الولاية عند الجنيد .

. مفهوم الولاية ومراتبها .

. لوازم الولاية وحدودها عنده (العصمة – الشفاعة – الكرامة) .

5–الولاية عند القشيري .

- مفهوم الولاية ومراتبها .
- لوازم الولاية وحدودها عنده (العصمة . الشفاعة . الكرامة) ، وفيما يلي تفصيل القول في هذه المسائل .

– هذا عن موضوع الدراسة والأعتبارات التي حددت اختياري له .

1–الولاية لغة :–

الولاية ، بكسر الواو، من وَلِيَهُ وَلْيًا : أي دنا منه دنوا ،الناصر ، وأَوْلَيْتُه إياه بمعني أدنيْتُه ومنه والَاه وموالاةً ، ووالَي بين الشيئين : قارب بينهما .[1]

فالولاية ينصرف معناها إلى " القرب والنصرة " ، كما ينصرف معناها إلى المحبة والمودة ، ولهذا يقال إن فلانا يلي فلانا ، أى يقرب منه . والولى هو القريب ، وهو التابع المحب أيضا والنصير .[2]

كما أنها تتمثل في قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه وذلك بتولي الحق إياه حتي يبلغه غاية مقام القرب والتمكين . إذ أن الولي هو : من تولي الحق أمره ، فحفظه من العصيان ولم يخله ونفسه بالخذلان حتي يبلغه في الكمال مبلغ الرجال وكما قال تعالي " إِنَّ وَلِيِّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ " الأعراف : 196 .

2– الولاية فى القرآن والسنة :

لا يختلف معني الولاية وما يشتق منها فى القرآن والسنة كثيرًا عما هو موجود فى اللغة من معانٍ سبق الإشارة إليها . ومن الواجب علينا أن نتبين قدرًا منها ، لنظهر حقيقة الولاية بالنسبة للخالق والمخلوق ، وفى البداية وجب علينا أن نوضح نقطة من أهم النقاط الفاصلة وهى أن القرآن الكريم يحمل قدرًا هائلا من المعاني الخاصة بكلمة الولاية، وما يشتق منها ، وهذه المعاني شكلت منطلقا لكل من الجنيد والقشيري موضع بحثنا .

فإذا دققنا البحث فى أيات القرآن الكريم وجدنا أن كلمة الولاية لم تذكر إلا موضعين فقط وهما فى قوله تعإلى " هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا" [الكهف :44] ، وقوله تعإلى وقوله تعإلى" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" [الأنفال :72] .

أما مشتقات الولاية فى القرآن فمنها الولي ، وجمعه أولياء ، وكلتا الكلمتين ذكرت كثيرًا فى القرآن الكريم .

ويختلف معني الولاية أو الولي كلًا حسب موضعه فى الآية فإذا جاءت ملازمة لله تعإلى كانت ولاية النصر والخير والنعمة ، وإذا جاءت ملازمة للشيطان فمصيرها الخزي وسوء العاقبة .

والمواضع التى تأتي بها الولاية أو الأولياء وتكون ملازمة لله تعإلى كثيرة منها : قوله تعإلى " أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" [البقرة :107] فسبحانه وتعإلى هو الخالق ، المالك ، الولي ، وولايته ولاية نصر وعزة ، ونظير هذه الأيه قوله تعإلى " إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" [التوبة:116]

وكذلك نجد أن للمؤمنين الولاية من الله "إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ" [آل عمران : 68] ، ومن ثم يكتب لهم الله النجاة بهذه الولاية فينجيهم من الظلمات بل ويضعهم علي الطريق الصحيح .

كما أن أولياء الله هم من تولوا حقه والقيام به وعبادته ؛ فكانت لهم الولاية والنصر من الله ويتضح ذلك من قوله تعالى " إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ " [المائدة : 55] .

ونجد هنا المفارقة الواضحة بين أولياء الشيطان فيما ينال كل فريق من جراء ولايته ؛ فالمؤمنون يخرجهم الله من الظلمات إلي النور ، وعلي النقيض من ذلك أولياء الشيطان يخرجون مواليهم من النور إلي الظلمات كما فى قوله تعالى " اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" [البقرة :257] ، وقريب من هذه الأيه قوله "وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا " [النساء :45] ، وهو سبحانه من يتولي الصالحين لقوله تعالى " إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ " [الأعراف : 196] .

وثمة معني آخر للولاية من خلال ولاية المؤمنين والمؤمنات لبعضهم البعض فى الحض والحث علي العمل الصالح وتماسكهم وتناصرهم مع بعضهم البعض، والدليل علي هذا قوله تعالى " وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " [التوبة : 71].

فأولياء الله إذاً هم الذين تولوا دينه تولاهم الله بنصرهم وحرَّم علي قلوبهم الخوف والحزن " أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " [يونس: 62] ، وحفظهم من الحزن من قِبل الله كان نتيجة لاستقامتهم وطاعتهم ويؤكد ذلك من خلال قوله تعالى " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " [الأحقاف : 13] ، فنجد الإشارة هنا إلى ولاية الكسب أن الله سبحانه وتعالى قد تولاهم لصدقهم وإخلاصهم فى طاعته وعملهم الصالح " لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" [الأنعام : 127] .

ونستنتج مما سبق أن العباد لهم ولاية من الله هي النصر من الله فى كل شيء ، والنصر علي الأعداء ، كما يلازمهم التوفق من الله ، ومن لزم الاستقامة سلم من العقاب وكان بمنأى عن الخوف فى الدنيا والأخرة وكفى بولاية الله لهم فى باطنهم لأنفسهم فقط دون أن يظهر للناس ولاية الله لهم بتوابع الولاية .

ولعل أعظم تأكيد للولاية وثمرتها هم ما جاء في الحديث القدسي فى الدفاع عن الأولياء ، فيروى النبي (ﷺ) عن ربه سبحانه وتعإلى قوله " من عادَي لى وليًا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، ومايزالُ عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ،فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت ، وأنا أكره مساءته " .[3]

ومن الأحاديث النبوية الأخرى التى تدعم الولاية وتذكرها ولكن بشكل غير مباشر هو الحديث الشريف الذى يذكر صنفا من الناس يسمون " الأبدال " وهى مرتبة من مراتب الأولياء وسيأتى الحديث عنها فى نفس الفصل ، حتى وإن كان الأبدال لا يمثلون أعلي مراتب الولاية عند الصوفة إلا أنهم لهم خصوصية فى عبادتهم وطاعتهم لله ، فيروى أن عليًا (رضي الله عنه) ، سأل رسول الله (ﷺ) عن الأبدال فقال " هم ستون رجلًا . قال يا رسول الله جلهم لي ، قال : ليسوا بالمتنطعين ، ولا المبتدعين ، ولا بالمنعمين ، لم ينالوا مانالوا بكثرة صيام ولا صلاة ولا صدقة ؛ ولكن بسخاء الأنفس ، وسلامة القلوب ، والنصيحة لأئمتهم . إنهم يا علي فى أمتي أقل من الكبريت الأحمر " .[4]كما يذكر هذا الحديث بروايات مختلفة مع اختلاف أعداد الأبدال .

3– الولاية عند الصوفية :

وقبل الخوض في الحديث عن مفهوم الولاية عند كلا من الجنيد والقشيري وجب علينا إلقاء الضوء عليها عند بعض الصوفية الأخرين ومنهم :

ومنهم الفرغاني (ت320هـ)الولاية بأنها مشتقة في الأصل من الوالي والتوالي : وهو أن يحصل شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما . وحيث كان هذا هو معني القرب ، استعملت هذه اللفظه في القرب ، علي اختلاف مفهوماته ، النسبي منه والحقيقي ؛ وفي توالي الأمور ، ونحو ذلك .[5]

وعند أبي سعيد بن أبي الخير (ت440هـ) : بأنها محض فضل من الله لعباده الكاملين في العبادة والطاعة ، إذ لما سبقت العناية في البداية ظهرت الولاية في النهاية .[6]

ومثلا نجد أن مفهوم الولاية عند الجيلاني (561 هـ)هي : نوع مخصوص من القرب الذي حققه العبد المؤمن بأداء ما افتراضه الله عليه ، ثم زاد عليه بنوافل من الطاعات ؛ فكان جزاؤه القرب من الله ، وثمرته المعرفة به تعالي وعنه .[7]

ولكن يختلف الرفاعي (ت 578 هـ) معاصر الجيلاني في تعريفه للولاية فيذهب إلي أن الولاية : محض اختصاص من الله لبعض عباده ، فيختص الله برحمته من يشاء من عباده .[8]

كما ينتهي مصطفي عبد الرازق (ت 1947م) في ارآئه عن الولاية عند الصوفية بأنها : عبارة عن دوام الاشتغال بالله والتقرب إليه بطاعته ، فإذا كان العبد بهذه الحالة فلا يخاف من شيء ولا يحزن من شيء ، لأن مقام المعرفة والولاية تمنعه من أن يخاف أو يحزن .[9]

4– الولاية عند الجنيد :

أ– مفهوم الولاية ومراتبها :–

لم يكن للولاية عند الجنيد تعريفًا محددا ؛ لكن يمكننا أن نستشف مفهوم الولاية من خلال أقواله كما وقفنا عليها في مصنفاته .

وبداية يمكن القول أن مفهوم الولاية في جوهره عند الجنيد لا يخرج عما هو ثابت فى النصوص القرآنية والحديثية . فالولاية عنده هى : تولى الحق سبحانه لأمور هذا العبد وعنايته به ؛ حتى يصل به إلى القرب والتمكين ، فيتغلب العبد علي حاله عند فنائه عن نفسه بتمكين من الله له . [10] فالولي

عنده هو من يتولي الله سبحانه أمره ، فيحفظه من المعاصى ، ولم يتركه لنفسه لتوقعه فى الخذلان ، حتى يبلغه فى الكمال مبلغ الرجال . [11]

والأولياء هم صفوة عباد الله ، اختارهم للولاية ، وهيأهم لتحمل مسؤلية العلم به ومعرفته ، فأستعملهم لتأدية الأعمال المحبوبة عنده ، والتى تقربهم إليه ، فبلغوا بها أعلى درجات القرب والوصول من الله . [12]

ويزيد الجنيد رأيه وضوحًا فيؤكد أن الولي هو ذلك العبد الذى اختصه الله بالولاية ، وزاده فى القرب منه ، واصطنعه لنفسه ليبلغ أعلى درجات الرفعة ، ليكون إمامًا للطالبين . [13]

ونستنتج مما سبق أن الولاية عطاء يهبه الله لمن يشاء من عباده لما تقربوا إليه فوصلوا إلى أعلي درجات القرب منه ، ليكونوا أئمة يدعون الناس إلى الله ، فهم الطريق لهداية الخلق ، والأمناء علي سره [14] .

وقبل أن نمضى فى بحثنا لنستقرئ مراتب الولاية وحدودها عند الجنيد ؛ وجب علينا التأكيد على أن نقطة البدء فى أمرها عنده هو الالتزام التام بكتاب الله وسنة نبيه (ﷺ) ، فمن لم يحفظ القرآن ولم يتفقه فى فهم الحديث ، لا يعتد به ، ولا يمكن النظر إليه علي أنه ولي من أولياء الله أو يستحق أي مرتبة من مراتبها . [15] وسنعود إلى هذه النقطة مرة أخرى لنبين كيف تكون الولاية من هذا الوجه وهبًا ، وكيف تكون من وجه آخر كسبًا .

وبعد أن تعرفنا علي المفهوم العام للولاية عند الجنيد ، ومضينا في الطريق لنتعرف علي مراتب الولاية عنده . وجدناه لا يتطرق إلى الحديث عنها بشكل واضح وكبير ، فما ذكره عنها لا يتعدي بضع صفحات ومنها ما جاء موافقًا لما في القرآن والسنة ، وبعضها الآخر غير ذلك .

فأول ما يصادفنا فى حديثه عن المراتب هى مرتبة القطب ، فالقطب فى اصطلاح الصوفية هو : " الواحد الذى هو موضع نظر الله تعالى من العالم فى كل زمان ، وهو على قلب إسرافيل (عليه السلام

.

) " .[16] ولكنه لم يطل فى الحديث عنه فكل ما ذكره حيث سئل عنه أنه لم يظهر ، وهذا يعنى اعتقاده بوجود القطب ولكنه لم يظهر فى عصره .[17]

كما يذكر الجنيد لفظ الأوتاد فى بعض أحاديثه ، فالوتد لغة هو : " ما رُز فى الأرض أو الحائط من خشب . جمع أوتاد ، وأوتاد الأرض هى الجبال " .[18] أما فى اصطلاح الصوفة فهم : " الرجال الأربع من العالم أي الشرق والغرب والشمال والجنوب بهم يحفظ الله تعالى تلك الجهات لكونهم محال نظره تعالى " .[19]

لكن الواضح من كلام الجنيد أنه لم يقصد منها تلك التعريفات السابقة المتعارف عليها بين جماعة الصوفية ، وإنما أراد بلفظ " الأوتاد " فى عباراته المعني الوظيفى من الكلمة بمعني أن الأولياء هم سند الدين وعماده كما أن الجبال هى رواسى الأرض ، فهم المنارة التى يهتدى بها السالكين فى طريقهم إلى الله ، وسبيل لهداية الخلق وإرشادهم ، ويتضح ذلك من قوله " الذين جعلهم للدين عمادًا ، وللأرض أوتادًا " .[20]

أما عن المرتبة التي تحدث عنها الجنيد باستفاضه وليس هو فقط بل معظم الصوفية هى مرتبة الأبدال ، وقد رويت عنها بعض الأحاديث الشريفه " ذكر أهل الشام عن علي بن أبي طالب ، وهو بالعراق ، فقالوا إلعنهم يا أمير المؤمنين ، قال : لا إني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول "الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلًا ، كلما مات رجل ، أبدل الله مكانه رجلًا ، يسقى بهم الغيث ، وينتصر بهم علي الأعداء ، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب " .[21]

والأبدال لغة : " أي بدل الشيء غير صورته ، ويقال بدل الكلام : حرفه ، والأبدال : الزهاد ، وعند الصوفية لقب يطلقونه على رجال الطبقة من مراتب السلوك عندهم " .[22] أما فى اصطلاح

الصوفية فهم : " سبعة رجال يسافر أحدهم عن موضع ويترك جسدًا علي صورته فيه ؛ بحيث لا يعرف أحد أنه فقد ، وذلك معنى البدل لا غير ، وهم علي قلب إبراهيم (عليه السلام) " .[23]

فإذا ذهبنا إلي الجنيد وجدنا فكرته عن البدل تظهر واضحة جلية من خلال أحد أحاديثه وهو " حضرت إملاك بعض الأبدال من النساء ، ببعض الأبدال من الرجال ، فما كان فى جماعة من حضر إلا من ضرب بيده إلى الهواء ، فأخذ شيء وطرحه ، من دُر و ياقوت وما أشبهه ، فضربت بيدى ، فأخذت زعفرانًا وطرحته ، فقال لى الخضر (عليه السلام) ما كان فى الجماعة من أهدى ما يصلح للعرس غيرك " .[24]

فمن الحديث السابق نستنتج : وجود الأبدال وأنها تكاد أن تكون وظيفة من الوظائف التى يكلف بها أحد الأولياء حسب درجته فى القرب من الله ، كما يتضح أن هذه المرتبة تُأخذ بالتبادل بين الأولياء ولكن بشرط وفاة الولي حتى يأخذ الأخر مكانه .

كما يتضح من كلام الجنيد جواز وصول النساء إلى أعلى مراتب الولاية ، واعتقاده بوجود الخضر (عليه السلام) وأنه مازال حيًا حتى الآن ، أو ربما يقصد بالخضر هنا مقام يصل إليه الولي كمقام الخضر (عليه السلام) .

وتأكيد الجنيد علي جواز حصول الولاية للمرأة لا غرابة فيه ؛ وذلك لأن مفهوم الولاية كما يتضح في القرآن والسنة لا يقتصر علي نوع معين من الجنس البشري فهي حق متاح لكل المؤمنين إذ جنس البشر هنا رجل أو مرأه لا محل لها ، ومادام الكل يحققون معني العبادة الكاملة والطاعة لله المأمور بها في كتابه وسنته .

فقد اتفق المسلمون علي جواز وقوع النبوة والولاية للنساء ، ولا مانع في ذلك شرعًا ولا عقلًا ، كما اتفقوا علي عدم وقوع الرسالة للنساء ، وفي ذلك دليل علي أن مجال الوحي والإلهام يستوي فيه النساء والرجال ، فلا عائق يعوق المرأة عن أن تسمو بروحها إلي أقصي غايات السمو المقدورة للبشر ، بأن تصل إلي مرتبة العرفان والولاية .[25]

فالولاية إذن تحصل للمرأة كما هي حاصلة للرجل لأن سبب الحصول عليها في النوعين مرتبطًا بكمال العبادة ودوام القرب من الله بصالح الأعمال ودليل هذا قوله تعالي " فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ۖ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ" [آل عمران:195]

، وقوله تعالي " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " [سورة الحجرات:13] .

وهو عينه ما يقرره ويؤكد عليه الإمام المجدد مصطفي عبد الرازق ورأيه هذا نابع من رؤيته في ضرورة إدراك دور المرأه في المجتمع ومدي تقدير الإسلام لها بجعل الولاية حقًا لها كما هي حق للرجل ، وتأكيده هذا علي حق المرأه في الولاية نتيجه لأفكاره المستنيرة التي كان يعتقدها ويدعوا إليها منها ضرورة تعليم المرأه ؛ وذلك لعظم دورها في بناء المجتمع وإصلاحه فهي المربية والمنشيه لأجيال المجتمع ومدي نضجها وتفتحها يترتب عليه إنشاء مجتمع ناضج مستنير .[26]

ومن المراتب التى يقل ذكر الجنيد لها ، أو بمعنى أدق يتغير مفهومها حسب موضعها هى مرتبة النجباء ، فالنجباء لغة : " جمع نجيب . وهو الفاضل على مثله النفيس فى نوعه " .[27] أما فى اصطلاح الصوفية هم : الأربعون القائمون بإصلاح أمور الناس ، وحمل أثقالهم ، المتصرفون فى حقوق الخلق لا غير .[28]

والنجباء من حيث المعنى اللغوى للكلمة بمعنى أنه الفاضل النفيس ويتضح ذلك فى إحدى رسائله " وقد رفع الله عز وجل . عن ذلك أقدار العلماء ، وجعلهم أئمة هداة نصحاء ، أبرار أتقياء ، خلصاء سعداء (نجباء) ....." .[29] ولكن الجنيد فى موضع أخر من نفس الرسالة بقصد بها المفهوم الخاص بمراتب الأولياء " .....فكن أيها السائل عن منازل النجباء ، ....." [30]

ولعل السبب فى عدم توسع الجنيد فى الحديث عن مراتب الأولياء كما توسع غيره من الصوفية ومن بينهم الحكيم الترمذي معاصره ومن بعدهما القشيري موضوع بحثنا الذى سيأتى الحديث عنه فى السطور القادمة ؛ أن الجنيد من الصوفية المتقدمين فهو إمام الطائفة وشيخهم فكان الحديث عن مراتب الأولياء مازال فى مهده الأول لم يخرج منه بعد ولم يتأثر التصوف بغيره من الثقافات التى تؤثر فى أفكاره واعتقاداته .

ب ـ لوازم الولاية وحدودها عند الجنيد :

إذا كان منتهى أمر الولي ابتداء أمر النبي ؛ فمن اللازم أن تكون الحدود فاصلة وقاطعة بين مقام النبوة من جهة ومقام الولاية من جهة أخري ، وما دام الأمر هكذا فمن الواجب علينا قبل البدء فى توضيح الحدود الفاصلة والفروق الواضحة بين مقام النبوة من جهة ومقام الولاية من جهة أخري ؛ وجب علينا توضيح الحكمة التى من أجلها جعل الله هذا المقام ـ الولاية ـ لبعض عباده .

وتتضح الحكمة في ذلك ؛ أن يتولوا مهمة هداية الخلق وإرشادهم لطريق الحق والصواب أي تولي مهمة الأنبياء لا مكانتهم ومرتبتهم ، فيكونوا بمثابة منارة يهتدي بها الإنسان الضال الحائر في طريق الظلمات ، فيحفظوا بذلك دين الله من خلال هداية الناس ، مأمورين بإقامته بين الناس بعدم التقصير في أي حد من حدوده أمرًا كان أو نهيًا .[31]

وهذه المكانة التى استحقها الأولياء من حيث وراثتهم للنبوة لم تأتي من فراغ وإنما استحقوها ، لإقامتهم دين الله الحق علي أكمل وجه ، وذلك بتمسكهم بكتاب الله وأتباعهم لسنة محمد (ﷺ) ، فمن أول وأهم خطوات التصوف وهو الطريق المؤدي للولاية هى اتباع كتاب الله وسنة رسوله .[32]

كما يتفق القشيري مع الجنيد فى ذلك من حيث تأكيده علي ضرورة التمسك بكتاب الله وسنة رسوله للوصول إلى هذه المكانة من حيث هداية الخلق وإرشادهم لطريق الله ، ووصولهم لأعلي المراتب [33] .

وكما جعل القشيري الأولياء دون الأنبياء فى المرتبة والمكانة ، فقد جعل للملائكة مقام معلوم لا يتخطونه ؛ من حيث عبادتهم المنقطعة لله ، وطاعتهم الدائمة له فهم لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، فقد جعل للأولياء مقام مستور بينهم وبين ربهم لا يعلمه إلا هو .[34]

أما الأنبياء فهم أعلي منزلة ومقامًا من الأولياء ؛ وذلك لأسباب عدة منها : عصمتهم من الذلل التى منحهم الله إياها ، وهى حد من الحدود الفاصله بين مقام النبوة ومقام الولاية ، فوجب علينا تحديد ومعرفة رأي الصوفية فى مسألة العصمة وخاصة الجنيد والقشيري محور بحثنا ، وذلك لمغالاة الكثيرين من الصوفية فى هذه المسألة حتى أن البعض منهم ذهب إلى وجوب عصمة الأولياء كما هى للأنبياء .

1. العصمة :

قد يتوهم البعض فى البداية قول الجنيد بعصمة الأولياء وذلك من خلال نقطتين رئيستين أولهما: استناده علي الحديث القدسي ".....كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ..." فيذهب فى تفسيره لهذا الحديث إلى أن الولي يسير بأمر الله وبفعل الله فيه وبتوفيقه وارادته ، فالله يوفقه ويهديه إلى طريق الصواب ، ومادام يسير بإرادة الله فأمُوره كلها تؤول إلى الصواب وإلى ما يرضى الله ورسوله دائمًا ، فلا يرتكب المعاصي ولا يقوم بها لتحكم إرادة الله ووجود فعله به .[35]

وهذا ما نراه عند الكلاباذي (ت381هـ) الذى يذهب إلى وجوب العصمة للولي وذلك من خلال قوله صراحة " والحق يتولي تصريفه ، فيصرفه في وظائفه وموافقاته ، فيكون محفوظًا فيما لله عليه ، مأخوذاً عما له وعن جميع المخالفات ، فلا يكون له إليها سبيل ، وهو العصمة ؛ وذلك معني قوله (ﷺ) " كنت له سمعًا وبصراً " فما يقصده من لفظ محفوظًا هنا هو عينه العصمة من جميع الزلل والأخطاء .[36]

أما النقطة الثانية التى تجعلنا نذهب إلى قول الجنيد بالعصمة هو النص الذى يُشِّبه فيه العبد بالشبح بين يدي مولاه يحركه كيف يشاء وقتما يشاء ؛ وهى تؤدى نفس المعني السابق فى تفسيره للحديث القدسي ، "فلأن الله هو المحرك للعبد ، فلا يحركه إلا لفعل الخيرات ، ويبعده عن المعاصي

والآفات والفتن ، فيكون بذلك معصوم عن فعل المعاصي ويتضح ذلك من خلال قوله " ...فشبح قائم بين يديه ليس بينهما ثالث ، تجري عليه تصاريف تدبيره ، فى مجاري أحكام قدرته ...." .[37]

ونستنتج مما سبق ما يشابه قول الجنيد بالعصمة ، ولكنه لم يصرح بهذا الأمر بشكل واضح ؛ فسرعان ما يعود الجنيد ليقلب الموازين رأسًا علي عقب من خلال كلامه الواضح الصريح الذى يؤكد فيه احتمال فعل العارف الكبائر وقيامه بها وذلك من خلال قوله حين سئل " العارف بالله يزني يا أبا القاسم ؟! فأطرق رأسه مليًا ، ثم رفع رأسه ؛ وقال : وكان أمر الله قدرًا مقدورًا "[38].

فالجنيد من القائلين بالحفظ للأولياء وليس العصمة ، فلو كانت لهم العصمة لما قام الولي بأي ذنب مهما كان صغيرًا أو كبيرًا ؛ فتجويزه للعارف بقيامه بالكبائر دليل علي احتمالية قيامه بالذنوب كبيرها أوصغيرها.

فالأولياء عند الجنيد لهم الحفظ من الله لقلوبهم من المعاصي والذنوب كبيرها وصغيرها ، وحتى وإن قام الولي بذنب فيكون حفظ الله وعنايته له من خلال توفيقه للتوبة من ذنوبه سريعًا ، قبل أن تتملك المعاصي و الذنوب من قلبه فعناية الله لأوليائه ملازمه لهم منذ الأزل قبل بداية الخلق علي حد قول الجنيد .[39]

ويزيد الجنيد رأيه وضوحًا فيذهب إلى أن الله يكرم أولياءه بجميل ستره لهم ، وتوفيقهم لأداء سنة نبيه ، محمد (ﷺ) ، ويعطيهم من المنح والأنوار ما يساعدهم علي فهم كتابه العزيز ، وينطقهم بالحكمة ، ويؤنسهم بقربه ، حتى يكونوا له طائعين ، فيتم الله نعمته عليهم بإكمال كل هذه العطايا بحفظهم من المعاصي والذنوب ؛ حتى ينجوا ويسلموا من عتاب الله لهم ، وبذلك تكمل لهم السلامة من المعاصي والآفات والزلات ، ويتضح ذلك كله من خلال قوله " أكرمك بطاعته ، وخصك بولايته ، وجلك بستره ، ووفقك لسنة نبيه (ﷺ) ، وأطلعك علي فهم كتابه ، وأنطقك بالحكمة ، وآنسك بالقرب ، وخصك بالفوائد ، ومنحك الزيادات ، وألزمك بابه ، وكلفك خدمته ، حتى تكون له موافقًا

، ولكأس محبته ذائقًا. فيتصل العيش بالعيش ، والحياة بالحياة ، والروح بالروح ، فتتم النعمة ، وتسلم من المعتبة ، فتصبح العافية ، وتكمل السلامة "[40]

ويزيد الجنيد إيضاحًا لرأيه فيؤكد أن الله يديم حفظه لأوليائه ، ويحفظ لهم الولاية ، إذا حسنت رعايتهم لحقوق الله ، أدُّوا واجباته علي أتم وجه ، والتزموا بأدآب وحقوق العبودية ، فإن لم يكن ذلك منهم فلا ولاية ولا حفظ لهم من الله ، وهذا دليل علي قول الجنيد بالحفظ لهم ، فإن كانت لهم العصمة لما أساءوا الرعاية من البداية ولا فقدوا الولاية فى النهاية .[41]

وينبني علي ذلك أن يكون حاصل رأي الجنيد قوله بحفظ الله لأوليائه وليس العصمة صراحة أو هو بالأحري يتحفظ في إثباتها ويجعلها حفظًا من الله ؛ من خلال ما منحهم به من منح وعطايا وأنوار تدلهم علي الطريق الصواب وتبعدهم عن فعل المعاصي والذنوب والآفات ، حتى وإن غلبته نفسه وفَعَلَ المعاصي كبيرة كانت أم صغيرة فسرعان ما يندم ويتوب ويعود إلى ما كان عليه من طاعات .

2. الشفاعة :.

وإذا ما انتقلنا إلى مسألة الشفاعة وعلاقتها بالولاية وجدنا أنفسنا أمام مسألة من المسائل الفارقة والفاصلة بين مقام النبوة ومقام الولاية .

فالشفاعة لغة : مشتقة من الفعل شفع وتشفع ومعناه أن يتشفع فلان لفلان فى أمر ما أي يتوسل به إلى الشخص الذى يمتلك حاجته .[42]

لكن علي الرغم من القدر الذى تحتله مسألة الشفاعة عند الصوفية إلا أنها لا تأخذ حيزا كبيرًا فى حديث الجنيد ؛ ولعل السبب فى ذلك إيمانه بمسألة الشفاعة والتزامه بما ورد عنها فى القرآن الكريم ؛ فنراه لا يزيد عليها ولا يبالغ فيها كما بالغ غيره من الصوفية ، فالشفاعة عنده لا تكون إلا بإذن الله ، ولمن ارتضي الله منه الشفاعة ، ويتضح ذلك من خلال ما ذكره فى إحدي أدعيته وهى قوله "..... وعلم أن لا يكون شيء إلا بمشيئتك ، ولا يشفع شافع إلا من بعد إذنك ...".[43] وقوله هذا يتوافق مع ما جاء فى كتاب الله عن الشفاعة وذلك فى قوله تعالى " اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا

تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [البقرة : 255] ، وقوله تعالى "يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا " [طه : 109]

3. الكرامة :

والكرامات عند الجنيد هى أمور يجريها الله عز وجل علي أيدي من يشاء من عباده ، فهى مواهب منسوبة إلى الله لا تنتسب إلى الشخص الذي ظهرت علي يديه .[44]

ويضع الجنيد للكرامات ولظهورها شروطا يجب تحققها ؛ منها أنه أوجب فى حال ظهور الكرامة علي يد الولي التأكد من صحتها وأنها ليست أحوالا شيطانية ، وذلك من خلال وزن أفعال الولي وأقواله أولًا علي ما ورد فى الكتاب والسنة ؛ فإذا جاءت أفعاله وأقواله موافقة لما جاء بها ، وجب تصديقه والقول بها .[45]

كما أنه اشترط أيضا للتصديق بهذه الكرامات وقت وحال ظهورها علي يد الولي ، وهو حال الصحو[46] لا السكر[47] ، وذلك لأن حال الصحو يكون وقت تمكين أي بعدما ارتقي الولي وتخلص من البدايات وأحوالها المتغيرة المتلونة وتمكن من حاله جاز ظهور الكرامات علي يديه وذلك بعد توافر الشرط الأول فيه وهو التمسك بكتاب الله وسنه رسوله (ﷺ) فى أقواله وأفعاله .[48]

فالجنيد من رافضى السكر فى الحال ، فدائمًا يدعو إلى حال الصحو ، فنراه ينكر علي الشبلي حاله الدائم فى السكر ، وتمني لو تخلي عن حال السكر هذا ، حتى يكون إمامًا صالحًا تنتفع به الأمة ،[49] وذلك مخالفًا لما رائه نيكلسون أحد المستشرقين حيث ذهب إلي أن " المسلم لا يصير وليا لفقهه مسائل الدين ، ولا لإكبابه علي صالح الأعمال ، ولا لزهادته في الدنيا ، ولا لطهارة خلقه .

وقد يكون له ذلك كله ، وقد لا يكون له شيء منه ، ولكن الذي لابد منه هو السكر والجذب ، فتلك علامة ظاهرة علي الفناء عن النفس الترابية . ومن كان مجذوبًا فهو ولي "[50] ؛ فهنا يضع نيكلسون السكر والجذب شرطًا من شروط الولاية وهو بذلك خالف في رأيه كثيرًا من كبار الصوفية ومنهم الجنيد الذين يرون أنه ليس من الضرورى أن يكون الولي من أصحاب السكر والجذب بل علي العكس من ذلك .

ففى رأي الجنيد أن الله جعل الأولياء فى الأرض ليكون لهم الحكم فى أمور الدين ؛ وذلك لأنهم أولياء للعالم أجمع ، فقد جعل لهم التصرف والحل والحكم فى الأمور الدينية ، فلذلك وجب عليهم أن يكونوا دائمًا فى حال صحو لتكون آراؤهم أصح الأراء وأصوبها ، فيهدون الأمة إلى الصواب ولا يحيرونهم بسكرهم ، كما أوجب الجنيد عليهم أن تملأ قلوبهم الشفقة فتكون قلوبهم أشفق القلوب خاصة علي الخلق ، ويتوافق قول الجنيد هذا مع قوله تعإلى "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ " [آل عمران :159] .[51]

ويزيد الجنيد إيضاح موقفه من الكرامة فى ارتباطها بالولاية ، فيؤكد علي إنه من شرط الولي الصادق فى ولايته ألا يكون مكترثًا بالكرامات طالبًا لها ؛ فإنها إن حصلت له تكون منحة وفضل من الله لهذا الولي الذى صدق فى تقربه من الله وعبادته لله ، حتى أنه طلب العقاب لمن يطلب الكرامة لنفسه ، ويتضح ذلك من خلال موقفه ضد النوري حين رَكِبَ البحر وطلب الكرامة لنفسه فى حصوله علي سمكة وزنها ثلاث أرطال ، وأقسم علي الله أن لم يحصل علي هذه الكرامة ليغرق نفسه ، فوقتها رأى الجنيد أنه من الأفضل له أن يخرج الله له أفعي تأكله ؛ حتى يتجرد من طلبه للكرامات ويتأدب مع الله .

ويحذر الجنيد من ركون القلب إلى الكرامات ، فقد تكون من النقم علي الأولياء وسبب فى حجب قلوبهم عن الله ، وتكون من المحن لهم كنوع من الاختبارلهذا الولي الذى تظهر علي يديه الكرامة ولدرجة إيمانه بالله وصدق نيته فى التقرب منه ، أهى خالصة لوجه الله ؟ أم غير خالصة وتنتابها بعض الشواغل ، فينجرفوا فى تيار البحث عن الكرامات والتلذذ بها .

ولنا هنا وقفة اعتبارية للمريدين عن الكرامات ؛ فإن للشيطان مدخل فى هذه الكرامات ؛ فقد تكون هذه الكرامات أو ما يخيل إليهم أنها كرامات هى من الأحوال الشيطانية للمريد ليوهمه أنه قد وصل ورفع عنه التكليف ولا حاجة له بالصحبة والتعلم والمجاهدات وهذا عينه ما حدث مع أحد مريدى الجنيد حين خيل إليه أنه وصل إلى مرتبة الكمال فمُكر به من الشيطان فأتي له بجمل ليركبه ويذهب إلى الجنة ولكنه اكتشف بأنه مكر من الشيطان بعد نصيحة الجنيد له ببعض الأذكار التى كشفت له عن ذلك .

ولذلك أكد الجنيد علي مريديه ضرورة الثبات علي الحال والأذكار والأوراد للولي حتى بعد ظهور الكرامات عليه ، وذلك عندما " ذَكَّر أهل المعرفة بالله ، وما يراعونه من الأوراد والعبادات ، بعد ما ألطفهم الله به من الكرامات ، فقال : " العبادة علي العارفين أحسن من التيجان علي رؤوس الملوك " .

لكن من الواضح أن طلب الكرامات عند الجنيد وحدوثها يختلف من موضع لآخر فقد رفض من النوري طلب الكرامة لنفسه ؛ لكنه قبلها من أبو حفص حين ضايقه أحد الأشخاص وقال له أنه لا نصيب له من الكرامات ، فجاء بالرجل إلى الحدادين فأخرج الحديد المحمي وبرده فى يده .

ولعل السبب فى إنكاره علي النوري هو اعتقاد الجنيد عدم اكتمال حاله لأن الغالب عليه دائما هو حال السكر ، لكنه يعلل السبب فى عدم إنكاره علي أبو حفص هو أن طلب الكرامة وظهورها أحيانًا يكون شفقه من الله علي حال الولي أن يتغير حاله إلى الأسوء إن طلبها من الله ولم تظهر له ، فيشعر بأنه ليس له دلال علي الله ، كما أنها تكون تثبيت من الله لوليه ، وهذا عينه ما حدث لأبي حفص .

وقد يكون ظهور الكرامة أحيانًا دفاعًا عن الولي وتقوية من الله له ضد المنكرين والأعداء ، فتكون له دليلًا وناصرًاعلي ولاية الله له ، وهذا ماحدث مع أبو جعفر الخصاف ، حين أنكر أهل الرحبة علي الأولياء فذهب إليهم يوما وهو راكب أحد السباع ، فتوقفوا من وقتها عن إنكارهم . لكن الجنيد ينكر علي مدعي الكرامات بغير وجودها ، ويشدد عليه حتى وصل به الإنكار إلى حد تشبيهم بالبهائم التى تأكل التبن .

وعلي الرغم من أن الجنيد يَحُد الكرامة بحدود وشروط لكن هذا لا يمنع من بعض مغالاة رصدناها في بعض مقولاته مثل ماذكره عن السري السقطي من حديث رب العزة إليه فى منامه عن محبة الخلق ودرجاتهم .

والنصوص القرآنية جاءت واضحة وقاطعة في هذا الأمر والدليل علي ذلك قوله تعالي " فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ " [الشوري : 48] فوضع سبحانه وتعالى للتحدث والتواصل مع عباده وهي وجود الوحي ، أو الحجاب ، أو ارسال الرسل وهى سنة الله الدائمة فى إتصاله بالخلق ، ومنها أيضًا ما ورد عنه وهو رؤيته لأدم – عليه السلام – فى المنام وهو يبكي ، فسأله عما يبكيه فأعطاه ورقة مكتوبة ، فأستيقظ من نومه فوجدها فى يده

لكن إنصافا منا للجنيد يجدر بنا القول بأنه من الجائز أن تكون هذه الأحاديث قول مرسل عن الجنيد وعن السري من مريديهم للرفع من شأنهم أمام العامة ؛ وسبب ترجيحي لهذا الاعتقاد عندي هو تمسك الجنيد الدائم بالكتاب والسنة ، وتأكيده علي ضرورة وزن أفعال الأولياء وأقوالهم علي القرآن الكريم والسنة النبوية ، والكرامات السابق ذكرها ليس لها دليل من القرآن الكريم ولا فى السنة .

كما أن من أنواع الكرامات أيضا إطلاع الله لأوليائه بعض من علوم الغيب وذلك فى قوله " بدت لك عجائب ما فى الغيوب من أنبائها ، وكشفت لك عن حقائق ما تكن من أكنانها ، وأوضحت لك سر غرائب اخفائها ....."

ومما يندرج تحت باب الكرامات الفراسة ، والتوسم ، والخاطر فالفراسة هى : أمر غيبي ينكشف عن صاحبه بصفاء الباطن ، وتنور البصيرة بنور القدس .ولقد تكلم الجنيد عن الفراسة بذكره لحديث صحيح مسند عن النبي (ﷺ) وهو قوله (ﷺ) " إتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله "

وتظهر فراسة الجنيد فى إحدي المواقف عندما " قعد الجنيد للناس فى الجامع ، فانتشر فى الناس أن الجنيد قعد يتكلم علي الناس ؛ فوقف عليه غلام نصراني متنكر ، وقال له : أيها الشيخ ، مامعني قول رسول الله (ﷺ) : إتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله تعإلى ؟ فأطرق الجنيد .. ثم رفع رأسه ، وقال : أسلم ، فقد حان وقت إسلامك . فأسلم الغلام " .

وتأتي الخواطر فى بدايتها علي صورة خواطر واقعة ، أو منامات صادقة . وإذا ما تتبعنا الخواطر عند الجنيد نجدها ثلاث أنواع : " خاطرشيطاني باعثه وسوسة الشيطان ، وخاطرنفساني باعثه الشهوة ، وخاطر رباني وباعثه التوفيق ، ولكل واحد من هذه الخواطر علامة يتميز بها عن صاحبه .

فالخاطر النفساني وباعثه الشهوة وطلب الراحة والتنعم ؛ وهذه الشهوة تنقسم إلي نفسانية : كحب الشهرة والجاه والانتقام من الغير عند الغيظ ، وإلي جسمانية : كالمأكل والمشرب والملبس والحاجة إلي التزوج ، والمقياس أنه خاطر نفساني شدة الحاحه وطلبه المستمر لهذه الشهوة مهما جاهد العبد في دفعها ، فلا ينفع معها الاستعاذة ولا التخويف ولا التحذير ؛ فوقتها يتيقن العبد أنه خاطر نفساني ، وطريقة التعامل مع هذا الخاطر يكون بمخالفته ، والإتعاب الشديد للنفس ، فإذا كانت متعتها الراحة فمخالفتك لها تكون بكثرة الكد وإتعابها في العبادة .

ومن علامات الخاطر الشيطاني تنبيه العبد وتذكيره بما يدعوا إليه الخاطر النفساني ، فالنفساني يلح علي العبد ولا يذهب عنه ولا يتبدل بينما الخاطر الشيطاني يلح تارة ويذهب تارة وأحيانا يتبدل ويتلون في متطلباته ، وعلامته الأخره أنه يطرأ علي العقل أما النفساني فهو محرك للطباع نحو الشهوة أو الراحة .

أما الخاطر الرباني فإحدي علاماته وأهمها موافقة ما به ـ الخاطر ـ للشرع وشهادته بصحته ، والأخر فتور النفس عن قبوله ابتداء ، حتي يحصل لها ترغيب ؛ ولكن سرعة النفس لقبول الخاطر الشيطاني أكبر وأكثر .

وأكثر ما يهمنا من هذه الخواطر هو الخاطر الرباني فللتأكد من أنه هو يجب الالتزام بمقارنته ووزنه بعلامات الخواطر السابقه ، فإن اشتبهت بها أنها من قبيل الخواطر الشيطانية أو النفسانية وجب علي العبد اتباع الخطوات السابق ذكرها لمقاومتها وردها ، وإن كان خاطر رباني فوجب الإسراع إليه وترك أي شيء يلهيه عنه ؛ وذلك لأن هذه الخواطر لا تدوم طويلًا والمبادرة لإمساكه مأمور به في الشرع علي حد قول الجنيد .

مفهوم الولاية ومراتبها عند القشيري :

وإذا اتجهنا إلي القشيري لنستطلع الأمر عنده حول مفهوم الولاية وجدناه لا يختلف كثيرًا عما هو موجود فى القرآن والسنة ؛ ولعل السبب في ذلك أنه يقدم معاني ومفاهيم للولاية من خلال

تفسيراته المتلونه لآيات من القرآن الكريم ، يظهر فيها تاثره الصوفى وتفسيره لها من خلال نظرته الصوفية ، فهى لطائف ودلائل من اشارات الصوفية .

فالولاية تردعنده بمعني "الرحمة " أى رحمة الله بهذا العبد المؤمن الذى من الله عليه ورحمه بالولاية لتكون له طريقًا يسير فيه إلى الله وتقربه إلى الله زلفا ، فيمَّنُ الله عليه بالعناية والحفظ التابعين للولاية ، ويتضح ذلك من خلال تفسيره لقوله تعالى "يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" [آل عمران : 74] .

ويزيد القشيري فى تعريفه للولاية ؛ فيوكد أنها المحبة ، فمحبة الله سابقة لمحبتهم له سبحانه وتعالى ، فمحبة الله لعباده لا يشوبها علة ، أما عبادة العبد لله معلقة بعلة وهى معرفته تعالى والطمع فى لطفه وإحسانه ، ولو لم تكن المحبة الأزلية لم تحصل النصرة فى الحال .

فالمحبة تقترب من معني الرحمة ؛ لكن المحبة أخص من الرحمة فهى إرادة الله لإنعام مخصوص بينما الرحمة إرادة كل نعمة ، فاللفظان يعودان إلى معنى واحد ، وهو إرادة الله تعالى فبها يحصل جميع مراداته .

كما تأخذ الولاية عنده معنى " القربة " و " العون " و " التخصيص " فالولاية هى القرب منه تعالى ، وكما اختارهم واختصهم بالقرب منه عن غيرهم ؛ جعل النصر والعون منة لهم من الله ، وهنا نجد إتفاق القشيري مع ما سبق أن قاله الجنيد فقد جاءت عندهما فضلًا أو منة من الله تعالي .

ويتحقق معنى العون فى قوله تعالى " اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " البقرة (257). فهو المتولي لأمور أوليائه ، المنفرد بإصلاح جميع أمورهم وأحوالهم ، المسئول بعنايتهم وحفظهم ، فلا يَكِلهم إلى أنفسهم أو إلى غيرهم لحظة فمن يظن أنه يَمُنُّ على أحد من أوليائه بخدمته أو مساعدته فهو فى ضلال .

وتظهر براعة القشيري وفصاحة لسانه فى الصرف والنحو ونبوغه وتفوقه فى اللغة العربية وليس فى التصوف فقط ؛ من تقديمه لتعريفات الأولياء والتى يتضح من خلالها معنى الولاية ، فالولي عنده له معنيان " إحدهما : فعيل بمعنى مفعول ، وهو من يتولي الله سبحانه أمره ، كما فى قوله تعالى "إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ" [الأعراف : 196] ، فلا يَكِلهم إلى أنفسهم أو إلى

غيره – سبحانه وتعالى – لحظة ، بل يتولى الحق رعايته . والثانى : فعيل صيغة مبالغة من الفاعل ، وهو الذى يتولى عبادة الله وطاعته ، فعبادته تجرى على التوالى ، من غير أن يتخللها عصيان " .

وبعد التعرف علي مفهوم الولاية عند القشيري ، نمضي في الطريق لنتحسس مراتب الأولياء عنده ، فنجد بعضها يأخذ مسميات توافق ما جاء فى القرآن والسنة ، وبعضها الآخر ليس كذلك .

فمرتبة الأبرار المذكورة فى القرآن فى قوله تعالى " إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفى نَعِيمٍ " [الأنفطار : 13] فالأبرار هم المؤمنون على حد قول القشيري .

والظاهر من كلام القشيري عن مرتبة " الأبرار " ؛ أنها مرتبة لا تكون إلا لمن حقق أعلى درجات الكمال فى الإيمان مارًا بطريق الإسلام تامًا له ، فطريق المؤمنين للخواص من العباد ، ويشترط فيه عين اليقين ، وامتلاء قلوبهم بالتصديق والإيمان التام بالله . فالأبرار هم " المختصون بحقائق التوحيد ، القائمون لله بشرائط التفريد ، والواقفون مع الله بخصائص التجريد " .

وينضم إلى مرتبة الأبرار مراتب عديده ذكرت فى القرآن أيضا ؛ منها مرتبة " الصديقين " و" الشهداء " و" الصالحين " والتزم القشيري بما جاء به النص القرآني بأن هذه المراتب تالية لمرتبة النبوة .

فمرتبة الصديقين لا يفوز بها إلا الصادق فى جميع افعاله ، فتكون هذه المرتبة ثمرة صدقه واجتهاداته ، فهم أصحاب تمكين ، قد تخلصوا من التلوين وتمكنوا من حالهم بمنحة منه تعالى ، ويميزهم الله بالنصر على أعدائهم فى الدنيا ، وفى الأخرة يجازيهم الله بعظيم ثوابه ، من بلوغ أعلى الدرجات ، وخلود فى نعيم دائم ، ويعادل مرتبة الصديقين ، كلًا من مرتبة " الشهداء" و" الصالحين " .

أما عن أعلى المراتب التى يصل إليها الولي هى مرتبة " الرباني " فهى المرتبة التالية للنبوة مباشرة ، ويستخرجها القشيري ويستدل على ذلك بآيات من القرآن الكريم كما فى قوله تعالى"لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ" [المائدة : 63] ، فهم أهل العلم بالدين ، وخلفاء النبي وورثته ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولكن بأحوالهم وأفعالهم لا بأقوالهم .[52]

ويظهر معنى الرباني فى مواضع عديدة من القرآن الكريم ويقدم لها القشيري تفسيرات إشارية جريًا علي ذوقه الصوفي كما فى الأية الكريمة " مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ" [آل عمران : 79] فهم أعلم الناس بالله ، قائمون به وحده ، فانون به عمن سواه ، يستهلكون نفوسهم وحظوظهم فى الله وبالله حتى استهلكت ، فانون حتى عن أحوال أنفسهم ؛ وبذلك كله أصبحوا يسمعون بالله ، ويتكلمون به ، ويبصرون به ، فانون عن كل ما حولهم وكل ما هو موجود فى الكون بأكمله ، فلا يرون لأنفسهم وجود إلا بالله .[53]

ثم يعود القشيري ليتحدث عن مرتبة أخرى وهى مرتبة " الموحدين " وهي عنده تقترب كثيرًا من مرتبة " الرباني " حتى أنهما كادا أن يكونا وجهين لعملة واحدة ، فالموحدون مسلِّمُون لأمر الله ، مؤمنون بقضائه وقدره ، ليس لهم إرادة ولا اختيار إلا إرادته واختياره ، فلا يستعجلون من الله أمرًا فصفتهم التأني والسكون والرضا .[54]

أما عن المراتب التى ذكرها القشيري ولم ترد صريحة فى القرآن والسنة ، ولكنه يفسر بعض أيات من القرآن الكريم تفسير إشاريا صوفيا يتوافق مع هذه المراتب الصوفية فهى مرتبة " الغوث " و" القطب "[55] و" البدل " لكن مرتبة الأبدال هى الوحيدة التى تظفر بحديث لها علي نحو ما أشرنا إليه عند الجنيد .

وأعلى هذه المراتب التى يذكرها الصوفية والقشيري باعتباره واحًد منهم هى مرتبة " الغوث "[56] ، فالغوث لغة : الرجل ، واستغاث فلان به أي استنصره واستعان به .[57] والغوث فى اصطلاح الصوفية هو : القطب ، ولكنه يسمي غوثًا حين يلتجئ إليه ولا يسمى فى غير ذلك الوقت غوثًا .[58]

أما "الأوتاد " و" الأبدال " فهم عند القشيري بالنسبة للخلق كالجبال الرواسي بالنسبة للأرض ، فبوجودهم يرحم الله عباده ويحفظهم وبهم يهتدى الخلق ، وبدعائهم يسقى الخلق إذا قحطوا ؛

وبذلك يكون قد اختلف مفهوم الأوتاد والأبدال عما هو موجود عند الجنيد فقد اتسع مفهومهم وخرج من مهده وتبلورت معانيه ورسخت في عقول وأذهان جماعة الصوفية .[59]

وفى النهاية نجد توافق القشيري مع الجنيد فى قوله بمراتب القطب ، والأوتاد ، والأبدال ، لكن مع بعض الإختلاف فنجد هذه المراتب تأخذ مفهوما أعم وأشمل مما أخذته عند الجنيد ، فالجنيد ذكر هذه المراتب ولكنه لم يذكرها بالمعني العميق المتكلف الذى ذكره القشيري ؛ ولعل السبب فى ذلك يعود إلى أن الجنيد يسبق القشيري فكانت هذه الألفاظ والمراتب فى عصره مازالت فى مهدها الأول لم تخرج منه بعد ولم تتأثر بأي أفكار أو غيرها من التأثيرات الخارجة عن الإسلام .

ت . لوازم الولاية وحدودها عند القشيري

فإذا مضينا مع القشيري ، لنستطلع رأيه فى مسائل العصمة . والكرامة . والشفاعة ، لوجدناه علي النحو التالي :.

1. العصمة :

ينتاب القشيري في مسألة العصمة بعض التردد فتارة يشترط فى بعض النصوص وجوب توافر الحفظ للولي ، كما يجب وجود العصمة للنبي .[60]

والتأكيد علي رأيه هذا يظهر في نصحه للمريدين بعدم اعتقاد العصمة فى الشيوخ ؛ مع وجوب حسن الظن بهم فيما يراه حقًا ، والتجاوز عما يراه خطأ ؛ لكن إذا أراد أن يتخلص من شكوكه حول هذه الأخطاء فلا مانع من سؤاله علي سبيل المعرفة ، لا علي سبيل الاعتراض حتى يجيبه .[61]

فالحفظ عنده لا يقتصر علي الستر علي الولي أو عدم فضحه أمام الملاء ؛ ولكن الحفظ عنده هو حفظ القلوب عن الميل للأهواء ، حتى لا يرجع عن طريق الصواب أو يحيد عنه إلى طريق الهوي . ثم يؤكد القشيري كلامه السابق بالحفظ في قوله باختصاص الله أوليائه بالحفظ دون العصمة ؛ من خلال شرحه المفصل الذى يفرق فيه بين العصمة والحفظ ، فالمعصوم لا يقوم بذنب نهائيًا ، بينما المحفوظ قد تصدر منه زلات وأخطاء ؛ ولكنه لا يصر علي أخطائه ويحفظه الله للتوبة منها سريعًا .

بيد أننا نجده في الآن نفسه بعد تأكيد الحفظ فقط ؛ يجعل العصمة شرطا من شروط إثبات الولاية لهذا العبد " فلا يكون وليًا إلا إذا كان موفقًا لجميع ما يلزمه من الطاعات ، معصومًا بكل وجه عن الزلات ..." فبهذا الشرط الذى وضعه للحكم علي الولاية يكون قطع برأيه فى القول بالعصمة للأولياء .

ويزيد رأيه تأكيدًا علي ستر الله لأوليائه بالعصمة ؛ حتى يحميهم من مخالفتهم له ، ويوفقهم لمواصلة عبادته وإتمامها ، ويصونهم بها عن إتباع أهوائهم وشهواتهم ، لتأهلهم للوصول إلى أعلي درجات القرب من الله . ولهذه الأسباب جعل العصمة بمثابة الرحمة لأوليائه فهى نعمة من نعم الله عليهم يختص بها من يشاء من عباده .

لكن رأي القشيري يختلف عما رآه الهجويري (ت466هـ) معاصره الذى ذهب إلى القول بالحفظ فقط للأولياء من المعاصي والذنوب التى تسقط عنهم الولاية ، وأن العصمة ليست من قسمة الأولياء ولا شرطًا لولايتهم .

لكن الإنصاف يقتضي القول أن القشيري لا يجعل العصمة مع اثباتها مطلقة لأن من الجائز أن تسقط عنه مهما كانت مرتبة هذا الولي ، وذلك من خلال تشديده بقوة علي إقامة الحد علي الولي إذا خالف حدود الله " لو أن وليًا من الأولياء سرقا نِصابًا من جرذ ، ووجد فيه استحقاق القطع ، أقيم عليه الحد كما يقام علي المتهتك ، ولا يسقط لصلاحه ". والأشارة فيه أنَّ أمر الملك مقابل بالتعظيم ، بل كل من كان أعلي رتبة فخطره أدق وأخفى ، والمطالبة عليه أشد . فلا يستخفنَّ أحد الإلمام بزلة .." .

ولا يقتصر حفظ الله لأوليائه عند القشيري علي الحفظ من الذنوب والمعاصي فقط ؛ إنما يندرج تحته حفظهم من الأعداء أيضًا ومن كيدهم ، كما يرد الكيد والبلاء علي أعدائهم .

فالقشيري بذلك قد انتهي في رأيه بقوله بالحفظ للأولياء والعصمة للأنبياء ؛ ويكون بذلك متفق مع الجنيد في رأيه بحفظ الأولياء إلا أننا نري أن رأي الجنيد يسير في خط أكثر استقامة من القشيري وذلك لتزعزع رأي القشيري في بعض الأوقات وميله إلي العصمة ، كما نجد اتساع مفهوم الحفظ عنده حتي اتخذ مناحي عديدة لم يتجه إليها الجنيد من قبل .

فالعصمة واجبة للأنبياء فقط وقد جعلها القشيري شرطا مهما من شروط النبوة ، حتى وإن تعمد أحد الأنبياء الكذب علي الله ؛ يمنعه الله ويعصمه من ذلك ، فالأنبياء معصمون علي الدوام من الوقوع فى الخطأ والكذب .

ثم يعود ليؤكد رأيه فيذهب إلى أنه ليس من الجائز فى صفات من اختاره الله للنبوة ولحمل رسالته إلى الخلق أن يكذب أو يدعو الخلق إلى نفسه ، لأنه بمجرد اختيار الله لهم ليكونوا أنبيائه وخلفائه فى الأرض تضمن هذا الاختيارعصمته لهم عما لا يجور أن يصدر منهم لأنهم مختارون مميزون علي الخلق أجمع.

2. الشفاعة :.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن مسألة الشفاعة عند القشيري والتي أخذت حيزا كبيرًا من الجدال في الفكر الصوفي وجدنا إتفاق القشيري مع الجنيد فى التزامه فى مسألة الشفاعة علي ما جاء فى الكتاب والسنة ۝ فلا تقبل الشفاعة إلا بإذن الله وإرادته ، فلا تسمع الشفاعة من الشفيع إلا بأمر الله تعالى بالشفاعة له .

فيُثبت القشيري الشفاعة للنبي (ﷺ) فإذا قبلها الله من أحد بإذنه فمن المؤكد أنها تقبل من نبينا (ﷺ) ، كما أنها تقبل من أكابر صفوته المختارين فى العامة من عباده ، فيقبل شفاعة الشيوخ فى مريديهم ، ويكون ذلك من خلال تعريف الله لهم بذلك فى الباطن .

فقد استوجب فى الشفيع أن تكون رتبته ومكانته عظيمة عند الله ، ليُخلَّص للمشفوع له حالته . ولكنه عاد ليثبت الشفاعة لمن يشهد بالتوحيد ولكافة المسلمين ؛ فيستشهد بقوله تعإلى"وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" [الزخرف :86] فيري أن الله يقبل شفاعة المسلمين جميعًا يوم الحساب ؛ لكن بشرط الإذن من الله تعالى ، فمن كانت قسمته من الأزل الحرمان من رحمة الله ، لا تنفعه الشفاعة من الغير ، ولا تقبل فيه .

ولا يغفل القشيري عن الشفاعة الغير مقبولة في الشرع ؛ والتى تكون لغير الله كما فى قوله تعإلى "وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ" [البقرة : 123] فلا يقبل الله الشفاعة من الأعداء ، والكفارأيضا لا تنفعهم شفاعة الشافعين ولا تقبل

لهم شفاعة مهما كانت مكانة الشفيع ومنزلته عند الله [62] ، فمن كانت قسمته من الأزل الحرمان من رحمة الله ، لا تنفعه الشفاعة من الغير ، ولا تقبل فيه .[63]

3. الكرامة :

وإذا انتقلنا إلى مسألة أخري تتلازم مع الولاية وهى الكرامة نجد أن المسألة قد تبلورت وإتسع مفهومها عند القشيري علي عكس المتقدمين ومنهم موضوع بحثنا الجنيد .

فمن الأسئلة التي تطرح نفسها في هذا السياق هي هل لو لم تظهر للولي كرامة لا يكون وليا ؟ وهل الولي مطالب أن يظهر كرامته أم يسترها ؟

وبداية نجد القشيري يثبت الكرامات للأولياء ويجعلها جزاء للمحسنين . [64] فنجده يسلم بوقوع الكرامات وجواز ظهورها للأولياء ، ويبين إتفاق أهل المعرفة والأخبار علي ذلك ، فظهور الكرامات عنده علما قويا يبعد عن الشك فيه ويدلل علي ذلك من خلال ما ورد فى القرآن الكريم فى قصة صاحب سليمان –عليه السلام – وذلك فى قوله تعإلى " قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ " [النمل : 40] ولم يكن نبيًا .[65]

ثم يعود القشيري فيوضح لنا الفرق بين المعجزة للنبي والكرامة للولي ؛ فيؤكد لنا أن المعجزات بوصفها اختصاصًا للنبي ، فلابد أن تكون ظاهرة عليه ؛ وذلك لأنه مبعوث من قبل الله إلى الخلق فلابد أن تظهر عليه بعض الدلائل التى تؤكد صدقه للناس من خلال المعجزات التى تكون خارقة للعادة ، وليس الأمر كذلك بالنسبة لكرامات للأولياء ؛ وذلك لأن الولي لم يؤمر برسالة تبليغية كالنبي ، ولكنهم مأمورون بدعوة الخلق إلى الله وحده ؛ تنبيها لهم من غفلتهم .[66]

ويذهب القشيري إلي أن ظهور الكرامات علي يد الأولياء يعد ضمن معجزات هذا النبي ودليل علي صدقه ، فإن لم يكن هذا النبي صادق فى نبوته لما ظهرت هذه الكرامات علي يد واحد من أمته .[67]

ومن هذا الوجه لا تتطابق كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء ؛ وذلك لأن الأنبياء مطالبون بإظهار المعجزات لإثبات صدق نبوتهم ، لكن الأمر علي العكس بالنسبة للأولياء فمن الجائز عدم

ظهور الكرامات علي يد أحد الأولياء فى الدنيا وذلك لا يقدح فى مكانته ، فشروط المعجزات جميعها تتوفر فى الكرامة إلا هذا الشرط وهو ضرورة إظهار المعجزة وإخفاء الكرامة ، ليقع بذلك الفرق بين المعجزة والكرامة. [68]

فالمعجزات علي يد الأنبياء هى أمور يظهرها الله عليهم إذا شاء وقتما يريد ، فليس لهم سبيل لإظهارها إلا بإذن الله . [69] فما الحال بالنسبة للأولياء الذين هم دون مرتبة الأنبياء ؟

وإذا اتجهنا للأمام محمد عبده (ت 1905م) لنري ما وصل إليه الأئمة المجددون في هذه المسائل نجده يذهب إلي أن " المعجزة هي : ليست من نوع المستحيل عقلًا ، فإن مخالفة السير الطبيعي المعروف في الإيجاد مما لم يقم دليل علي استحالته ، بل ذلك مما يقع " ، ويتفق الإمام محمد عبده مع القسيري في قوله بضرورة اقتران دعوى النبوة بالمعجزات وذلك لأن ظهورها يعتبر من أهم البراهين المثبته لنبوة من ظهرت علي يده .[70]

ويزيد القشيري إيضاح موقفه من الكرامة فى ارتباطها بالولاية ، فيؤكد علي أن الكرامة قد تحصل للولي باختياره ودعائه إلى الله ، وقد لا تحصل له ، وقد تقع عليه فى بعض الأوقات دون اختيار أو طلب منه ، فهى تظهر علي ذلك العبد اختصاصًا وتفضيلًا له من الله ، [71] فإن ظهرت علي يد الولي بفضل من الله فمن غير اللأزم دوام ظهورها واتصالها .[72]

وقد تقع الكرامات كنوع من التدعيم والملاطفة من الله لاوليائه لتقويتهم ، إذا اقبلت قلوبهم علي فترة أوضعفت نياتهم ، فتظهر وقتها الكرامات لتقوي معرفتهم ، وتزيد من يقينهم . [73]

ويؤكد القشيري علي شرط من أهم الشروط الواجب توافرها عند ظهور الكرامات علي يد الولي ؛ وهو صدقه فى أحواله مع الله والتزامه بالكتاب والسنة ، فمن تظهر عليه ولم يكن صادقًا فى

أحواله فلا تجوز ولا يجب أن يعتد بها فقد تكون استدراجا ، فلابد أن تكون هذه الكرامة فعلًا ناقضًا للعادة فى أوقات التكليف وصاحبها موصوف بالصدق فى أحواله . [74]

وللكرامة أشكال وأنواع ، فقد تظهر الكرامة كنوع من عناية الله بهذا الولي ليعلم العباد أن الله هو من يتولي أمور أوليائه ، فلا يلقي أمورهم وشئونهم علي أحد غيره وهذا عينه ما حدث مع مريم القديسة من عناية الله لها وإطعامها ، بل جعل هذه العناية كرامة لها بوجود الطعام عندها من الله .[75]

وقد تكون هذه الكرامات إجابة دعاء ، أو رفع بلاء ، أو إنزال للماء فى زمان القحط والعطش . 76 حتى أنه يصل فى حد جعل الكرامات للأولياء بتفسيره لقوله تعالى " يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ" [الرحمن : 29] أن هذا الشأن هو تحقيق الله لإرادة أوليائه . [77] وذلك يوافق قوله تعالى " لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ" [الزمر : 34] وليس من المعقول أو غير الطبيعي أن يريد أولياء الله شيئا يخالف إرادة الله أو شيئا فيه معصية .

ومما يعتبر نوعا من أنواع الكرامة أو فرعًا منها هى الفراسة فيعرفها القشيري بأنها : " خاطر علي القلب فينفى ما يضاده ، وله علي القلب حُكم اشتقاقًا من فريسة السبع ، وليس فى مقابلة الفراسة مجوزات للنفس ".[78]

كما حذر القشيري منكري الكرامات من سوء العاقبة جزاء إنكارهم وجحدهم بأيات الله التي تظهر علي أيدي أوليائه .[79]

ولنزداد معرفة أكثر عن الولاية وخاصة عند الجنيد والقشيري سنتتبع الحديث في الفصل القادم عن ماهية الولاية أهي وهبا أم كسبا .

تعقيب :

وخلاصة القول أن : الولاية مثبتة فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، والكثير من الأيات القرآنية يُذكر فيها الحديث عن الأولياء ؛ ولا يختلف مفهوم الولاية عند كلًا من الجنيد والقشيري عما هو موجود فى القرآن والسنة ،

وقد بينا ـ الجنيد والقشيري ـ مراتب الأولياء مع اختلاف مفهومها بعض الشيء عند القشيري ، والسبب فى ذلك أن القشيري من المتأخرين فمفهوم المراتب للأولياء كان قد خرج من مهده وتبلور وأصبح واضحًا وجليًا .

ويتضح لنا شخصية الجنيد من خلال بعض النصائح التي قدمها للأولياء ؛ فنراه يدعو إلي بناء مجتمع إسلامي بعقول واعية راقية ، مدركة ما يحتاج إليه مجتمعنا الإسلامي وقتها ، وهذا ما نحتاج إليه أيضا في عصرنا الحاضر ، من قلوب نقية صافية مليئة بتعاليم الإسلام والتصوف ، وعقول منيرة واعية لإعادة بناء مجتمعنا الإسلامي بالاعتماد علي العقيدة الإسلامية والتصوف الروحي لارتقاء عقولنا وقلوبنا معًا .

ويوضح كلًا من الجنيد والقشيري الحدود الفاصلة بين مقام النبوة والولاية والتى بينتها الشريعة اولًا ، فالأولياء تظهر مهمتهم وتتضح من حيث وراثتهم للأنبياء فى هداية الخلق وإرشادهم لطريق الحق والصواب ؛ ولم ينالوا هذه المكانة إلا لأنهم تمسكوا بكتاب الله وساروا علي نهج رسوله (ﷺ) وخطاه ؛ واجتهدوا وجاهدوا وصدقوا وأخلصوا الله فى كل شئ ، ولكن تبقي هناك حدود تفصل مقام النبوة عن مقام الولاية منها مسألة العصمة ، والشفاعة ، والكرامة .

وينتهى الجنيد فى مسألة العصمة إلى قوله بالحفظ وليست العصمة ؛ من خلال ما منحهم الله من منح وعطايا وأنوار تدلهم علي الطريق الصواب وتبعدهم عن فعل المعاصي والذنوب والآفات ، أما عن رأي القشيري فى مسألة العصمه فينتهي بأنه لا يجعل العصمة مع اثباتها مطلقة لأنه من الجائز أن تسقط عن هذا الولي مهما كانت مرتبته .

وقد التزم كلا من الجنيد والقشيري بالشفاعة المعتدلة التي أقرها القرآن الكريم والسنة النبوية مع المغالاة بعض الشيء من جانب القشيري في اثباته جواز شفاعة الشيوخ لمريديهم .

وأخر مسألة من المسائل الفاصلة بين مقام النبوة ومقام الولاية هى مسألة الكرامة ، فنجد الجنيد والقشيري من القائلين بجواز وقوع الكرامة وحدوثها ؛ ولكن فى ظل شروط يجب توافرها.

المصادر والمراجع :-

1- ابن منظور ، لسان العرب ، (القاهرة / الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، دون تاريخ)

2- ابن أبي الدنيا ، كتاب الأولياء ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، القاهرة / مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع ، 1987م

3- البخاري ، صحيح البخاري ،القاهرة / دار التراث ، دون تاريخ

4- الحكيم الترمذي ، ختم الأولياء ، تحقيق عثمان إسماعيل يحيي ، (بيروت / المطبعة الكاثوليكية)

5- أحمد الجزار ، المعرفة عند صوفية الإسلام (أبو سعيد بن أبي الخير نموذجًا) ، (القاهرة ، شركة الأمل للطباعة والنشر)

6- أحمد الجزار ، الولاية بين الجيلاني وابن تيمية ، (القاهرة / دار سجال للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1 . 2014م

7- أحمد الجزار ، قضايا وشخصيات صوفية ، ، (منشأة المعارف ، بالاسكندرية) ، تاريخ النشر 2001م

8- الجنيد ، رسالة الجنيد إلي عمرو بن عثمان المكي ضمن كتاب تاج العارفين ، دراسة وجمع وتحقيق : سعاد الحكيم ، القاهرة / دار الشروق ، الطبعة الثالثة / 2007م

9- السبكي ، طبقات الشافعية الكبري ، تحقيق : عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي ، دار إحياء الكتب العربية ، ج 2 ، دون تاريخ

10- السهروردي ، عوارف المعارف ، ضبطه وصححه : محمد الخالدي ، دار الكتب العلمية (بيروت – لبنان) الطبعة الأولي 1999م

11- عبد الرزاق الكاشاني ، معجم اصطلاحات الصوفة ، تحقيق وتعليق وتقديم : عبد العال شاهين ، القاهرة / دار المنارة للطبع والنشر والتوزيع ، ط1 / 1413هـ . 1992م

12- أبو نعيم الأصبهاني ، حلية الأولياء ، مطبعة السعادة (مصر) ، ومكتبة الخانجي القاهرة ،ج 10 مصر، 1938م

13- ماسينيون ومصطفي عبد الرازق ، التصوف ، لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية : إبراهيم خورشيد . عبد الحميد يونس . حسن عثمان ، دار الكتاب اللبناني / مكتبة المدرسة ، الطبعة الأولي . 1984م

14- القشيري ، لطائف الأشارات ، وضع حواشيه وعلق عليه : عبد اللطيف حسن عبد الرحمن ، بيروت ـ لبنان / دار الكتب العلمية ، الطبعة الثانية

15- القشيري ، الرسالة القشيرية ، تحقيق : عبد الحليم محمود ـ محمود بن الشريف ، مطابع مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر والتوزيع ،1989م

16- الكلاباذي ، التعرف لمذهب أهل التصوف ، قدمه : محمود النواوي ، القاهرة ـ مصر / مكتبة الكليات الأزهرية ، الطبعة الثانية / 1980م

17- الطوسي ، اللمع ، تحقيق : د/ عبد الحليم محمود وطه سرور ، مصر / دار الكتب الحديثة / 1960م

18- الهجويري ، كشف المحجوب ، دراسة وترجمة : د/ إسعاد قنديل ، بيروت ـ لبنان / دار النهضة العربية ، 1980م

19- المناوي ، الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية ، الجزء الأول ، تحقيق : محمد الجادر (دار البشاير : دمشق) ، (دار صادر ، بيروت : لبنان) بدون تاريخ

20- محمد عبده ، رسالة التوحيد ، د / محمد عمارة ، القاهرة (دار الشروق / ط1 / 1414هـ ،1994 م

21- نيكلسون ، الصوفية في الإسلام ، ترجمه وعلق عليه / نور الدين شريبه ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الثانية ـ 2002م

الهوامش :–

1– الزمخشري ، أساس البلاغة ، تحقيق عبد الرحيم معروف ، (القاهرة / دار الكتب ، 1372هـ . 1953م) ، مادة ولي .
2– ابن منظور ، لسان العرب ، (القاهرة / الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، دون تاريخ) ، مادة ولي .
3– البخاري ، صحيح البخاري ، القاهرة / دار التراث ، باب التواضع ، ج4 / ص129 .
4– ابن أبي الدنيا ، كتاب الأولياء ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، القاهرة / مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع ، 1987م ، ص34 .
5– الحكيم الترمذي ، ختم الأولياء ، تحقيق عثمان إسماعيل يحيي ، (بيروت / المطبعة الكاثوليكية) ، ص484 .
6– أحمد الجزار ، المعرفة عند صوفية الإسلام (أبو سعيد بن أبي الخير نموذجًا) ، (القاهرة ، شركة الأمل للطباعة والنشر) ، الطبعة الأولي ، ص76 .
7– أحمد الجزار ، الولاية بين الجيلاني وابن تيمية ، (القاهرة / دار سجال للطباعة والنشر والتوزيع) ، ط1 (1435 . 2014م) ، ص23 .
8– أحمد الجزار ، قضايا وشخصيات صوفية ، (منشأة المعارف ، بالاسكندرية) ، تاريخ النشر 2001م ، ص200
9– المرجع نفسه ، ص200 .
10– عبد الرزاق الكاشاني ، معجم اصطلاحات الصوفية ، تحقيق وتعليق وتقديم : عبد العال شاهين ، القاهرة / دار المنارة للطبع والنشر والتوزيع ، ط1 / 1413هـ . 1992م ، ص79 .
11– المصدر نفسه ، ص79 .
12– أبو نعيم الأصبهاني ، حلية الأولياء ، مطبعة السعادة (مصر) ، ومكتبة الخانجي (القاهرة : مصر، 1938م) ،ج10/ ص279 .
13– المصدر نفسه ، ج10/ ص265 .
14– انظر المصدر نفسه ، ج10/ ص280 .
15– انظر أبا نعيم الأصبهاني ، حلية الأولياء ، ج10 / ص255 .
16– عبد الرزاق الكاشاني ، معجم اصطلاحات الصوفية ، ص162 .
17– انظر الهجويري ، كشف المحجوب ، دراسة وترجمة : د / إسعاد قنديل (دار النهضة العربية ، بيروت : لبنان – 1980م)،ص359 .
18– المعجم الوسيط ، (مكتبة الشروق الدولية – الطبعة الرابعة : 1425هـ / 2004 م)ص1009 .
19– عبد الرزاق الكاشاني ، معجم اصطلاحات الصوفية ، ص58 .
20– أبا نعيم الأصبهاني ، حلية الأولياء ، ج10 / ص265 .
21– أخرجه أحمد (112/1) ، والطبراني فى الأوسط (5 / 39) ، والحاكم (4 / 110) .
22– المعجم الوسيط ، باب الباء ، ص44 .
23– عبد الرزاق الكاشاني ، معجم اصطلاحات الصوفية ، ص114 .
24– السبكي ، طبقات الشافعية الكبري ، تحقيق : عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي ، دار إحياء الكتب العربية (د.ت) ، ج2 / ص270 .
25– ماسينيون ومصطفي عبد الرازق ، التصوف ، لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية : إبراهيم خورشيد . عبد الحميد يونس . حسن عثمان ، دار الكتاب اللبناني / مكتبة المدرسة ، الطبعة الأولي . 1984م ، ص104 .
26– انظر أحمد الجزار ، قضايا وشخصيات صوفية ، ص203 .
27– المعجم الوسيط ، باب النون ، ص901 .
28– عبد الرازق الكاشاني ، معجم اصطلاحات الصوفية ، ص114 .
29– الجنيد ، رسالة الجنيد إلي عمرو بن عثمان المكي ضمن كتاب تاج العارفين ، دراسة وجمع وتحقيق : سعاد الحكيم ، القاهرة / دار الشروق ، الطبعة الثالثة / 2007م ، ص286 .

30- الجنيد ، رسالة الجنيد إلي عمرو بن عثمان المكي ضمن كتاب تاج العارفين ، دراسة وجمع وتحقيق : سعاد الحكيم ، ص288 .
31- انظر أبو نعيم الأصبهاني ، حلية الأولياء ، ج10 / ص280 .
32- انظر المصدر نفسه ، ج10 / ص255 .
33- انظر القشيري ، لطائف الأشارات ، وضع حواشيه وعلق عليه : عبد اللطيف حسن عبد الرحمن ، بيروت ـ لبنان / دار الكتب العلمية ، الطبعة الثانية ، ج1 / ص214 .
34- انظر القشيري ، لطائف الأشارات ، ج3 / ص96 .
35- انظر الجنيد ، كتاب الفناء ضمن كتاب تاج العارفين ، دراسة وجمع وتحقيق : سعاد الحكيم ، ص 249 .
36- الكلاباذي ، التعرف لمذهب أهل التصوف ، قدمه : محمود النواوي ، القاهرة ـ مصر / مكتبة الكليات الأزهرية ، الطبعة الثانية / 1980م ، ص142 .
37- الجنيد ، المقطوعة الثالثة (توحيد الخواص) ضمن كتاب تاج العارفين ، دراسة وجمع وتحقيق : سعاد الحكيم ، ص 260 .
38- انظر القشيري ، الرسالة القشيرية ، تحقيق : عبد الحليم محمود ـ محمود بن الشريف ، مطابع مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر والتوزيع ،(1409هـ ـ 1989م) ، ج2 / ص566 .
39- انظر أبو نعيم الأصبهاني ، حلية الأولياء ، ج10 / ص270 .
40- الطوسي ، اللمع ، تحقيق : د/ عبد الحليم محمود وطه سرور ، مصر / دار الكتب الحديثة / 1960م ، ص313 .
41- السهروردي ، عوارف المعارف ، ضبطه وصححه : محمد الخالدي ، دار الكتب العلمية (بيروت – لبنان) الطبعة الأولي 1999م ، ص 278 .
42- المعجم الوسيط ،باب الشين مع الفاء ، ص487 .ط4/ 2004م / مكتبة الشروق الدولية .
43- الطوسي ، اللمع ، ص329 .
44- الجنيد ، (كتاب الفناء) ضمن كتاب تاج العارفين ، دراسة وجمع وتحقيق : سعاد الحكيم ، ص249 .
45- انظر المناوي ، الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية ، الجزء الأول ، تحقيق : محمد الجادر (دار البشاير : دمشق) ، (دار صادر ، بيروت : لبنان) بدون تاريخ ، ص574 .
46- أما الصحو فهو : صفو الشهود عن البقية ؛ فإن السكر مؤذن بالبقية ، وإلا لم يجز في الحق ، والصحو مخبر بالخلو عن الشوق بلذة الوصول ، وفناء البغية ؛ فهو يستلزم السلو الموجب للبسط بالحق . وصورته في البدايات : الفراغ والسلو عن العادات والمألوفات الطبيعية ، وفي الأحوال : صفاء الحال بقوة الحب ، والسلو عما سوي المحبوب ، أما عن درجته في النهاية : صفاء العشق والذوق بأحدية الجمع والفرق . – عبد الرزاق الكاشاني ، معجم الأصطلاحات الصوفية ، ص357،358 .
47- فالسكر : حيرة بين الفناء والوجود في مقام المحبة الواقعة بين أحكام الشهود والعلم إذ الشهود يحكم بالفناء ، والعلم يحكم بالوجود . أما الصحو فهو : صفو الشهود عن البقية ؛ فإن السكر مؤذن بالبقية ، وإلا لم يجز في الحق ، والصحو مخبر بالخلو عن الشوق بلذة الوصول ، وفناء البغية ؛ فهو يستلزم السلو الموجب للبسط بالحق . عبد الرزاق الكاشاني ، معجم الأصطلاحات الصوفية ، ص355، 357 .
48- انظر الهجويري ، كشف المحجوب ، دراسة وترجمة : د/ إسعاد قنديل ، بيروت ـ لبنان / دار النهضة العربية ، 1980م ، ص462 .
49- انظر المصدر نفسه ، ص663 .
50- نيكلسون ، الصوفية في الإسلام ، ترجمه وعلق عليه / نور الدين شريبه ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الثانية (1422هـ ـ 2002م) ، ص120 .
51- انظر الهجويري ، كشف المحجوب ، ص462 .
52- انظر المصدر نفسه ، ج1 / ص272 .
53- انظر القشيري ، لطائف الأشارات ، ج1 / ص155 .
54- انظر القشيري ، لطائف الأشارات ، ج2 / ص148 .

55- القطب هو : الواحد الذى هو موضع نظر الله تعالى من العالم فى كل زمان ، وهو على قلب إسرافيل (عليه السلام) " . – عبد الرازق الكاشاني ، معجم اصطلاحات الصوفية ، ص 162

56 – فالغوث لغة : الرجل ، واستغاث فلان به أي استنصره واستعان به .1 والغوث فى اصطلاح الصوفية هو : القطب ، ولكنه يسمي غوثًا حين يلتجئ إليه ولا يسمى فى غير ذلك الوقت غوثًا . المعجم الوسيط ، مادة غوث ، ص 665

57- المعجم الوسيط ، مادة غوث ، ص665 .

58- عبد الرزاق الكاشاني ، اصطلاحات الصوفية ، ص185 .

59- انظر القشيري ، لطائف الأشارات ، ج3 / ص17 .

60- انظر القشيري ، الرسالة القشيرية ، ج2 / ص436 .

61-انظر المصدر نفسه ، ج2 / ص626 .

66-انظر المصدر نفسه ، ج1 / ص65 .

67- انظر المصدر نفسه ، ج1 / ص264 .

68- انظر القشيري ، لطائف الأشارات ، ج3 / ص383 .

69- انظر القشيري ، الرسالة القشيرية ، ج2 / ص564 .

70- انظر المصدر نفسه ، ج2 /ص564 .

71- انظر المصدر نفسه ، ج2 / ص565 .

72- انظر القشيري ، الرسالة القشيرية ، ج2 / ص563 .

73- انظر القشيري ، لطائف الأشارات ، ج2 / ص118،119 .

74- محمد عبده ، رسالة التوحيد ، د / محمد عمارة ، القاهرة (دار الشروق / ط1 / 1414هـ ،1994 م) ، ص81 .

75- انظر القشيري ، الرسالة القشيرية ، ج2 / ص563 .

76- انظر القشيري ، لطائف الأشارات ، ج1 / ص145،146 .

77- انظر المصدر نفسه ، ج1 / ص169 .

78- انظر القشيري ، الرسالة القشيرية ، ج2 / ص562 .

79- انظر القشيري ، لطائف الأشارات ، ج1 / ص145 .

80- انظر المصدر نفسه ، ج1 / ص370،371 .

81- انظر المصدر نفسه ، ج1 / ص131 .

82- القشيري ، الرسالة القشيرية ، ج2 / ص398.

83- انظر القشيري ، لطائف الأشارات ، ج1 / ص211 .